محاضرات إشكاليات الفلسفة الغربية الحديثة

ملاحظة: هناك نقاط مهمة تطرقنا لها في المحاضرات المباشرة مع الطلبة لا نود ذكرها هنا .

تمهيد: اخترنا إشكاليات محدّدة تؤسس لمضامين إشكاليات الفلسفة الغربية الحديثة وصنفناها إلى ميتافيزيقية، ومعرفية، وسياسية، وأخلاقية. أما ما هو ميتافيزيقي منها فقد اخترنا الثنائية في الاتجاه العقلاني، في حين ركزنا على إشكالية معرفية ذات امتداد ميتافيزيقي تتعلق بالموقف التجريبي من قضايا ميتافيزيقية من خلال نموذج الجوهر عند لوك وباركلي و هيوم. والإشكالية الثالثة ذات طابع سياسي ترتبط بالتأسيس السياسي والانتقال من مرحلة الطبيعة إلى المرحلة السياسية عند فلاسفة العقد الاجتماعي: لوك هوبز وروسو، في حين خصصنا الإشكالية الأخيرة للأخلاق وتتعلق بمصدر القيمة الأخلاقية ونركز على النفعيين وكانط.

المحاضرة الأولى

إشكالية الثنائية (تتمة):

تعدّ ثنائية الجسم والنفس بصورة خاصة، أو الثنائيات بصورة أعم عند ديكارت، من أهم جوانب فلسفته ذكراً ومناقشة في الكتابات الفلسفية الحديثة و المعاصرة، وهي إشكالية مركبة حيث كل جزء منها يثير عديد التساؤلات، وإن كانت مشكلة العلاقة بين المادي و الروحي، أو بين النفس و الجسم قديمة في الطرح، إلاّ أنّ ديكارت أعطى لها الإثارة و المناقشة بصورة أكثر جدّية، فما قامت الفلسفة التي تأثرت بديكارت في أحد جوانبها إلاّ بحل ما خلّفته الثنائية الديكارتية من أزمة على مستوى الفكر الفلسفي الحديث وتداعياتها اللاحقة، خاصة ما تعلّق بمشكلة تفسير العلاقة التفاعلية بين الجوهرين. يمكننا أن نشير إلى أن الثنائية الديكارتية يمكن تفكيكها إلى مجموعة مشكلات، إذ يمكن في هذا الصدد أن نحدّد مشكلتين رئيسيتين وإن كانتا متمايزتين إلاّ أنّهما مترابطتان، ونقصد بذلك: مشكلة التمييز بين ما هو مادي وما هو نفسي، أو بين النفس و الجسم من جهة، ومشكلة العلاقة بينهما، أو التأثير المتبادل بينهما من جهة ثانية، وعلى هذا يمكننا أن نطرح الإشكالية التي تغطي الموضوع في مجمله: إذا كانت النفس متمايزة عن الجسم ومنفصلة عنه، فكيف يمكن أن نتصور وحدة بينهما، ومن ثمّ وجود علاقة بينهما؟

الثنائية عند ديكارت: في البدء علينا أن نشير إلى أنّ الثنائية عند ديكارت ليست صورة واحدة، كما نعتقد دائماً، ثنائية النفس والجسم، بل عندما يتحدث عن الجواهر المخلوقة والجواهر غير المخلوقة، يتحدث في واقع الأمر عن ثنائية الوجود، الوجود الإلهي المتعالي والوجود الحسي، لكننا نحن نناقش هنا ثنائية الإنسان فقط من حيث أنّه مكون من جوهرين. كتب ديكارت : "..أمّا العناصر الأساسية التي أغفلنا عن ذكرها فهي تبدو لي كالأتي: أولاً وقبل كل شيء قد ميّزت بين ثلاثة أنواع من الأفكار و المفاهيم الأولية، حيث يعرف كل واحد منها بصفة خاصة وليس عن طريق مقارنتها بعضها ببعض، المفاهيم التي أملكها عن النفس، و التي أملكها عن الجسم، والتي أملكها عن الوحدة بين النفس و الجسم، بعد هذا التمييز كان عليّ أن أفسر الفرق القائم بين هذه الأنواع الثلاثة في المفهوم، وبين عمليات النفس التي تمكننا منه.." (i)

1. الجوهر المفكر(النفس): ذكر ديكارت في معظم أعماله الجوهر المفكر، وعندما نقول جوهراً فهذا يعني وفق التحديد الأرسطي أنّه قائم بذاته، أي هو منفصل عن الجوهر المادي، ففي التأملات أثبت وجود هذا الجوهر في التأمل الأول، وأثبت ماهيته وحقيقته في التأمل الثاني، مع العلم أن كتاب "التأملات" في مجمله مناقشة لقضيتين أساسيتين، ذكرهما المؤلف كعنوان فرعي للتأملات، وهما على التوالي: البرهنة على وجود الله وخلود النفس.

أول اليقينيات التي أثبتها ديكارت بعد رحلة الشك هو كونه ذاتاً مفكرة. انطلق "ديكارت" من الشك الكلّي (*Universal Doubt*) تحضيراً لفلسفته. ما حقيقة وجود الذات؟ يجيب "ديكارت" بأنّه لا يملك أي صفة التي هي من طبيعة الجسم، وحتّى بعض صفات النفس، مثل قوة التغذي، و المشي، أو حتّى الإحساس..إذا صحّ أن لا جسم لي فلا قوة لي على المشي أو على التغذّي، ولا إحساس بدون جسم؛ أمّا صفة التفكير فهي التي تخصّني، ليصل إلى« أنا موجود مادمت أفكر؛ فقد يحصل أنّي متى انقطعت عن التفكير تماماً انقطعت عن الوجود بتاتاً»(ii)، وهذه ما تعرف بقضية الكوجيتو " أنا أفكر إذن أنا موجود" (***Cogito Ergo Sum***). هذا هو الجوهر المفكر.

2 .الجوهر الممتد (الجسم): هو ثاني أهم عنصر في مخطط ديكارت الفلسفي الميتافيزيقي، فالصفة الأساسية والأولية للجسم أو المادة هو كونه ممتداً في أبعاده الثلاثة: الطول العرض والعمق، لكن الامتداد هنا ليس مجرد مظهر للجوهر المادي فقط بل جوهره(iii). يقول ديكارت في كتابه المبادئ القسم الثاني*: " **طبيعة الجسم أو المادة لا يكمن في كونه شيئاً صلباً أو خفيفا أو ذا لون، أو ما يؤثر على الحواس بأي طريقة، ولكنّه ببساطة في كونه شيئاً ما ممتداً في الطول والعرض والعمق. الوزن و اللون ومختلف الكيفيات الأخرى التي ندركها بالحواس، يمكن الاستغناء عنها، بينما تبقى المادة كما هي، وهذا يعني أن طبيعة المادة لا تعتمد على أية كيفية من الكيفيات السابقة .."**(iv) ، ويقول في " القواعد": "..ونقصد بالامتداد ما له طول وعرض وعمق" (v).

أمّا الشيء الذي كان في ذهن ديكارت وهو أنّه عندما نقول إنّ طبيعة الجسم لا تتضمن إلاّ الامتداد، فديكارت هنا لا يقصد أنّ الجسم لا يملك كيفيات أخرى عدا الامتداد، هو يعتقد بالكيفيات الأخرى للجسم طبعاً، لكن هذه الكيفيات هي نتيجة الامتداد فقط.

المحاضرة الثانية.

أدلة التمييز بين النفس والجسم:

يضع ديكارت أمامنا مجموعة أدلّة على تميز النفس عن الجسم، والجسم عن النفس، إذ أنّ النفس جوهر قائم بذاته، والجسم جوهر قائم بذاته، النفس عنده هي "الجوهر الذي يحل فيه الفكر"، والجسم هو " الجوهر المتحيز الذي يتخذ شكلاً ووضعاً" (vi). يقدم ديكارت حججاً مختلفة قد يشترك في بعضها مع فلاسفة آخرين قبله، وأهم ما في هذه الحجج :

الحجة الأولى: قوام هذه الحجة هو أنّ قوام وجودنا هو النفس، وأنّ النفس ليست بحاجة للجسم كي توجد، قد توجد بدون الجسم، و أورد هذه الحجة في عمله المبادئ، يقول ديكارت: "..لكي نعرف طبيعة النفس وأنّها جوهر متميز كل التميز عن البدن: لأنّنا حين نفحص عن ماهيتنا نحن الذين نفكر الآن في أنّه ليس خارج فكرنا شيء هو موجود حقاً، نعرف جلياً أنّنا لا نحتاج لكي نكون موجودين إلى أي شيء آخر يمكن أن يعزى إلى الجسم، وإنّما وجودنا بفكرنا وحده...بالنظر إلى أنّنا لا نزال نشك في وجود أي جسم في حين أنّنا نعرف على وجه اليقين أنّنا نفكر" (vii). كما ذكرها بأكثر تفصيل في عمله "المقال عن المنهج".. ولقد عرفت من ذلك، يقول ديكارت أنّي كنت جوهراً، كل ماهيته أو طبيعته ليست إلاّ أن تفكر، ولأجل أن يكون موجوداًن فإنّه ليس في حاجة إلى مكان، و لا

يعتمد على أي شيء مادي، بحيث أن الإنية، أي النفس، هي متمايزة تمام التمايز عن الجسم؛ بل هي أيسر أن تعرف، وأيضاً لو لم يكن الجسم موجوداً البتّة لكانت النفس موجودة كما هي بتمامها"[viii].

الحجة الثانية: وتستند هذه الحجة إلى الفرق بين النفس والجسم من حيث قابلية كل منهما للقسمة، وقد أورد ديكارت هذه الحجة في كتابه " التأملات".. ولكي نبتدئ هذا النظر ألاحظ هنا أولاً أنّ هناك فرقاً كبيراً بين النفس والجسم، من حيث أنّ الجسم بطبيعته منقسم دائماً، في حين أن النفس لا منقسمة. ذلك أني حين أنظر إلى النفس، أي حين أنظر إلى ذاتي من حيث إني شيء مفكر لا أستطيع أن أميز في أجزاء ولكني أعرف و أتصور تصوراً واضحاً جداً أنّي شيء واحد تام لا يتجزأ..."[ix]

الحجة الثالثة:

بالإضافة إلى هذه الحجج التي صنّفها الدّارسون لفلسفة ديكارت.هناك حجة ثالثة تقوم على أساس أنّ النفس ليست بحاجة إلى الجسم لكي تدرك بعض المعقولات، أي أن النفس تستغني عن جميع الصور التي تقدمها الحواس أو الخيال، وإنّما تدركها النفس بواسطة النور الطبيعي، كما يقول ديكارت في التأمل السادس، وبدون معونة الجسم. وهذه المعقولات هي التي تتعلق بالمبادئ والأوليات الفطرية. يقول ديكارت ".. أنّ هدفي الرئيسي كان دائماً لفت الانتباه إلى بعض الحقائق البسيطة جداً التي هي فطرية في أذهاننا.."[x] . وهذه الأفكار من السهولة بمكان اكتشافها من طرف المتأمل أوضح من أي شيء آخر يعرفه الإنسان عن طريق الحواس، ومن أشهر هذه الأفكار التي يذكرها دوما في كتبه: الأفكار الفطرية عن الله، والنفس البشرية، والجوهر الممتد، المفاهيم المشتركة

2.4 الحجة الإبستيمولوجية أو حجة الانفصال:

الدراسات المعاصرة لمسالة التمييز بين الجسم والنفس لا تركز كثيراً على تلك الحجج المباشرة، بالرغم من أهميتها، بل يكون تركيزها على الحجة الإبستيمولوجية التي أوردها ديكارت في "التأمل السادس"، في تمييزه بين النفس و الجسم، وهي مختلفة عمّا ورد في أعماله الأخرى. وبرأينا تعدّ أهم الحجج لأنّها تتسق و مجموعة الأدلة التي قدّمها لمختلف قضايا الفلسفة، كإثبات أشياء العالم الخارجي، وأدلة وجود الله. حجة ديكارت الإبستيمولوجية تمثّل جسراً رئيسياً بين الديكارتية التاريخية والديكارتية المعاصرة للقرن العشرين في مناقشة العلاقة بين الجسم والنفس[xi]. وهذه الحجة التي وردت في التأمل السادس نجد جذورها في التأمل الثاني الذي خصه ديكارت لمعرفة الذات كشيء مفكر ومعرفة الجسم كشيء ممتد متحرك، فلا شيء بضروري عدا أنّه شيء مفكر، هذا ما أثبته في التأمل الثاني، وهو ما يمكن أن يكون مميزاً عن أي شيء فيزيائي. فالتفكير وحده هو الذي لا يمكن أن ينفصل عنّي. وفي التأمل الثاني يتضمن على الأقل تأكيداً، وهو من الأهمية بمكان في هذه المناقشة الخاصة بالحجة الإبستيمولوجية، على أنّه يملك فكرة واضحة ومتميّزة عن ذاته كشيء مفكر(وبمعزل عن أي تصوّر لما هو مادي وجسمي).

المحاضرة الثالثة:

مشكلة العلاقة أو التفاعل بين الجوهرين:

العلاقة بين الجوهرين كانت أكثر إشكالاً من التمييز بين الجوهرين كما حدّدها ديكارت، فقد حدّد منطقة في الجسم(الغدّة الدرقية) هي المسؤولة عن التفاعل بين ما هو مادي و ما هو نفسي. لكن لديه وعياً بأنّ هناك تأثيراً

متبادلاً بين النفس و الجسم، فكما تتأثر النفس بالبدن يتأثر البدن بالنفس أيضاً، إذ يشكلان وحدة واحدة، ولم يكن على استعداد لإنكار التأثير المتبادل، ومن ثمّ حاول فهم هذا التأثير المتبادل. وإجمالاً وقع ديكارت في مأزق التوفيق بين أن يقرّ بالفصل من جانب، والإقرار بالعلاقة بينهما؟لقد كان للثنائية الديكارتية تأثير كبير كأزمة عند أتباع ديكارت ، إذ العلاقة بين ما هو مادي و ما هو فكري وروحي تبدو غامضة في ظل التفسيرات التي قدّمها ديكارت لعلاقة الجوهر المفكر بالجوهر المادي، فافتراض الغدّة الصنوبرية كرابط يفسر لنا تلك العلاقة التفاعلية بين النفس والجسم لم تكن بالمرضية علمياً، أمّا التبريرات الدينية و الأخلاقية للفصل بين الجوهرين، في كون الفصل والتمايز يعطي التفسير المقبول لخلود النفس من جهة ولفناء الجسم من جهة أخرى، لم تكن هي الأخرى بالمرضية. ونعتقد أن فلسفة **باروخ سبينوزا"** ما كانت إلاّ محاولة لحل هذه الإشكالية التي تضرب بجذورها في تاريخ الفكر الفلسفي منذ القديم. يقر سبينوزا بوحدة الوجود ، الله أو الطبيعة شيء واحد، فقد بنا **"سبينوزا"** فلسفته كلّها على الجوهر، لكنه جوهر واحد يسميه **"الله"** أو الطبيعة الطابعة. ويرفض أي علاقة بين ما هو متعالي و ما هو محايث.

وإذا كان **"ديكارت"** قد اعتبر الامتداد و الفكر صفات لنوعين من الجواهر، فإنّ **"سبينوزا"** ينظر إلى الامتداد و الفكر كصفتين لجوهر واحدٍ، أو ماهية واحدةٍ، و قد توصل **"سبينوزا"** إلى هذه المسلمة الأساسية في فلسفته الميتافيزيقية عن طريق الثنائية الظاهرة في المفهوم الديكارتي عن الجوهر. ثمّ يوظف **"سبينوزا"** التعريف الديكارتي للجوهر السابق ... ويخلص إلى أنّ هذا التعريف لا يناسب على وجه التحديد سوى **"الله"**، ومنها يتخلى عن الثنائية الديكارتية، ويعتبر كلاً من الجوهر الجسماني و الجوهر العاقل مجرد صفتين أزليتين لجوهر خالد أزلي هو **"الله"** أو الطبيعة. و من ثمة يعطي تعريفاً كاملاً للجوهر فيقول: « أقصد ما هو كائن في ذاته ومدرك بذاته، و لا يحتاج المفهوم لمفهوم شيء آخر ينبغي له فيه أنّ يتكون انطلاقاً منه»[1] . إذن **"الله"** هو الجوهر الواحد، و لا يمكن أنّ يوجد خارجه أي جوهر. أي ما يوجد لا يمكن أنّ يكون إلاّ به، أو أنّ يكون مدركاً بدونه، فكلّ الموجودات الأخرى هي معلولة من **"الله"**، و لا تنتمي إلى الطبيعة الطابعة (الله وصفاته الأزلية)، بل ينتمي إلى الطبيعة المطبوعة الخاضعة للضرورة.

يعد الفيلسوف الألماني " جوتفريد ليبنتز واحداً من أهم الفلاسفة و الرياضيّين المتميّزين في تاريخ فكر العصر الحديث، الذين حاولوا إيجاد حل للثنائيات التي نشأت في تاريخ الفكر الفلسفي، بين الكلي والجزئي، و الممكن والوجود، وبين الآلية والغائية، وبين المادة والروح ، والأفكار الحسية و الأفكار الفطرية. لا يوجد مبدأ افتخر به ليبنتز مثل هذا المبدأ، و الإنسجام لا يعني هنا سوى انتظام الأشياء، ويقصد به أنّ هناك انسجاما بين المونادات التي يتكون منها الكون منذ الأزل، تعمل المونادات جميعاً في انسجام واتساق دقيق لأنها تابعة لمبدأ واحد خالق لها. وهذا المبدأ يعدّ حلاً للثنائية بين النفس والجسم، فالله ووفق مبدأ الإنسجام الأزلي المسبق نظم بشكل مسبق عمل كل من الجسم والنفس.

ويضرب ليبنتز مثالاً بليغاً لمشكلة الثنائية والحل الذي اقترحه وقد تجاوز به موقف أو حل ديكارت الذي قدّمه لمشكلة الثنائية والعلاقة بين الجوهرين: النفس و الجسم، كما يتجاوز به أيضاً الذي اقترحه الفيلسوف العقلاني**"مالبرانش"** من خلال مبدأ المناسبة.

لنفترض أن هناك ساعتين نجعلهما متزامنتين بدقّة، ولهذا إشارة إلى الجسم والنفس.

يفترض ليبنتز ثلاث احتمالات لذلك:

الاحتمال الأول: يمكن أن يقوم الصانع بتوصيل بعضهما ببعض عن طريق أداة تديرهما معاً، أي أن أي تغيير في إحداهما يلزم عنه تغيير في الأخرى. هذا المثال يشير به ليبنتز إلى حل ديكارت لمشكلة العلاقة إذ الأداة التي تربط الساعتين هي الغدة الصنوبرية التي حل به ديكارت مشكلة النفس و الجسم. وهذا الحل بنظر ليبنتز مرفوض، فلا يمكن أن يؤثر عليهما مؤثر واحد بعينه و في الوقت نفسه.

---

1)- سبينوزا، كتاب الأخلاق، ج 1، ت 3، نقلا عن : عقيل حسين، سبينوزا،مرجع سابق ، ص 43.

الاحتمال الثاني: الصانع يقوم بتغيير عقارب الساعة باستمرار حتّى يبقيهما على نفس التزامن بشكل مباشر. هذا الاحتمال يشير إلى موقف مالبرانش في مذهب المناسبتية كحل للعلاقة بين النفس و الجسم. فالله يتدخل في كل مناسبة. لكن ليبنتز يرفض هذا الموقف بسبب عدم منطقيته.

الاحتمال الأخير: هو ما يقترح فيه ليبنتز الحل الأنسب لمعضلة العلاقة بين النفس و الجسم، و مفاده أنّ الصانع منذ البداية قام ببرمجتهما بدقة شديدة، مع عدم وجود أي علاقة بينهما. هذه البرمجة هي ما يشير به ليبنتز إلى مسألة الانسجام الأزلي.

خلاصة: كل ما قدمه الاتجاه العقلي في مسألة الثنائية يعدّ دليلا على أنها إشكالية ميتافيزيقية عويصة في الفلسفة الحديثة، وحتى الحلول المقدّمة من هذا الاتجاه ليست نهائية وليست حاسمة.

مصادر ومراجع المحاضرات:

---

[i] - the philosophical writings of Descartes. V/3..translated by(CSM), Cambridge University Press.1985. p :226

[ii] - ديكارت، **التأملات في الفلسفة الأولى**، التأمل الثاني، ترجمة: عثمان أمين، القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2009، ص : 95.

[iii] - Woolhouse.Roger.S., Descartes ,Spinoza, leibniz, The concept of substance in the Seventeenth Century Metaphysics :, Routladge ;London and New York.1993. p :79.

[*] سنعتمد على كتاب " المبادئ" لديكارت، القسم الأول منه فقط على النسخة المترجمة إلى العربية للمرحوم عثمان أمين، امّا الأقسام الأخرى فسنعتمد على النص الإنجليزي كما ورد في أعمال ديكارت المعروف بـ" *The philosophical Writings of Descartes* . الجزء الأول. المشهور ب(CSM) نسبة إلى الأحرف الأولى من أسماء مترجميه.

[iv] - the philosophical writings of Descartes, V/1..translated by(CSM), Cambridge University Press.1985.*.p :224.*

[v] - ديكارت، **قواعد لتوجيه الفكر**، فـ14، تر/ سفيان سعد الله، دار سراس للنشر تونس، ص: 114

[vi] - ديكارت : **مقال عن المنهج**، ترجمة: محمود محمد الخضري، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2000، ط2.ص:84.

[vii] - ديكارت، المبادئ، القسم الأول، ف8، ص ص : 56-57.

[viii] - ديكارت، المقال عن المنهج، ص ص: 150-151.

[ix] - ديكارت، التأملات، التأمل السادس، ص ص: 262-263.

[x] - Deborah, A. Boyle, Descartes on Innate Ideas , continum International Publishing . London, 2009.P :1.

[xi] - Margaret.D. Wilson, Descartes, The Epistemological Arguments for Mind-Body distictness in (NOUS)…Vol.10, No. 1976.Indiana University.p :3